قسم العلوم الإنسانية جامعة محمد العربي بن مهيدي أم البواقي

السنة الأولى ماستر تاريخ مقيـــاس : التاريخ السياسي للأندلس

المحاضرة الأولى : الإطار الجغرافي والتاريخي للأندلس

مقدمة:

لا يمكن لأي باحث في التاريخ السياسي أن يفكك شفرات الأحداث والتطورات دون أن يقف أولاً على مسرح العمليات الذي دارت عليه تلك الأحداث. فالجغرافيا ليست مجرد وعاء مكاني محايد، بل هي فاعل أساسي ومحرك خفي يصنع التاريخ ويحدد مساراته. وهذا ما ينطبق بدقة متناهية على شبه الجزيرة الإيبيرية (الأندلس).

إن دراستنا لـ "الإطار الجغرافي والتاريخي للأندلس "كمدخل لهذا المقياس، تهدف إلى فهم العبقرية المكانية لهذه الرقعة الجغرافية؛ فهي شبه جزيرة معزولة طبيعياً عن قارتها الأوروبية بسلسلة جبال البرتات (البرانس)، لكنها في الوقت ذاته منفتحة بحرياً على القارة الإفريقية عبر زقاق بحري ضيق (مضيق جبل طارق). هذا التناقض الجغرافي (عزلة أوروبية واتصال إفريقي) هو الذي سيحكم القدر السياسي والعسكري للأندلس طيلة ثمانية قرون.

علاوة على ذلك، فإن التضاريس الداخلية للأندلس، بتمزقها بين هضاب قاحلة وسلاسل جبلية وعرة ووديان خصبة، لم تكن مجرد تنوع بيئي، بل تحولت إلى حدود سياسية وعرقية غير مرئية. فهذه التضاريس هي التي حمت معاقل التمرد، وهي التي صعّبت مهمة بناء 'دولة مركزية' قوية، وهي التي فسرت لاحقاً سرعة تمزق البلاد إلى طوائف.

ومن الناحية التاريخية، لا يمكننا فهم سرعة الفتح الإسلامي وانهيار المملكة القوطية (Visigothic Kingdom) عام 92هـ/711م، دون تشريح البنية السياسية والاجتماعية الهشة التي كان يعيشها الإطار التاريخي لإيبيريا قبيل الفتح.

الإشكالية المركزية للمحاضرة :وعليه، تتبلور إشكالية هذه المحاضرة التأسيسية في التساؤل الآتي:

كيف تفاعلت الحتمية الجغرافية لشبه الجزيرة الإيبيرية مع المعطى التاريخي السابق للفتح، لتشكيل مسرح جيوسياسي معقد؟ وإلى أي حد ساهمت التضاريس الداخلية

للأندلس في صناعة جدلية المركز والأطراف، وتوجيه مسار التاريخ السياسي والعسكري للدولة الإسلامية في الغرب؟

للاجابة على هذه الإشكالية، سنعالج الموضوع عبر المحاورين الآتيين:

1. الإطار الجغرافي للأندلس الموقع وأثره في العزلة والاتصال.
2. الإطار التاريخي القوطي :البنية السياسية والاجتماعية لإيبيريا عشية الفتح الإسلامي.

المحور الأول: الإطار الجغرافي للأندلس (حتمية المكان في توجيه السياسة)

سنعالج هذا المحور من خلال ثلاث زوايا رئيسية تخدم "التاريخ السياسي": الموقع كعامل عزلة واتصال، التضاريس كعامل تقسيم سياسي، والأنهار كشرايين للحياة والحرب.

.1بنية شبه الجزيرة: بين "الجزيرة" و"الدرقة"

يجب أن ندرك أن العرب المسلمين أدركوا مبكراً الطبيعة "شبه الجزرية" لإيبيريا، وأطلقوا عليها مجازاً اسم "الجزيرة."

- **الوصف الجغرافي :**تمتد الأندلس (شبه الجزيرة الإيبيرية) ككتلة مدمجة، تفصلها جبال البرانس (Pyrenees) عن القارة الأوروبية، ويحيط بها البحر من بقية الجهات.
- **النص المصدري :**ينقل لنا **المقري** عن الجغرافيين القدامى تشبيههم للأندلس بـ"الدرقة" (الترس)، حيث يقول: "وصفتها الحكماء بأنها شامخة في الوضع... وهي شكل مثلث... وشبهها بعضهم بالدرقة..."[1].
- **التحليل السياسي :**هذا الشكل الجغرافي جعل الأندلس وحدة سياسية صعبة الاختراق من الخارج (إلا عبر المضيق أو ممرات البرانس)، لكنها في الوقت نفسه معزولة نسبياً عن مركز الخلافة في المشرق، مما مهد لاستقلالها السياسي المبكر.

2.الحواجز الطبيعية: جبال البرانس (حاجز أم جسر؟)

تعتبر السلاسل الجبلية في الشمال (جبال البرانس) التي سماها العرب "جبل البرتات" أو "جبل البوّابات" العنصر الحاسم في تاريخ الأندلس السياسي.

- **الأهمية الاستراتيجية :**لم تكن هذه الجبال سداً منيعاً بالكامل، بل احتوت على ممرات (بوّابات) سمحت بمرور الغزوات في الاتجاهين (الفتح الإسلامي لجنوب فرنسا، والهجمات الفرنجية لاحقاً).
- **المرجع :**يؤكد **حسين مؤنس** أن جبال البرانس لم تكن حداً فاصلاً بقدر ما كانت منطقة تداخل، وأن الفشل في السيطرة الكاملة على سفوحها الجنوبية هو الذي سمح بنشوء الممالك المسيحية في الشمال (أستورياس، ليون، نافار)[2]

3.الشبكة النهرية وتوزيع الثقل السياسي

لا يمكن فهم خريطة "الفتنة" أو "عصر الطوائف" دون فهم مجاري الأنهار الكبرى، حيث قامت العواصم الكبرى على ضفافها.

- **نهر الوادي الكبير :(Guadalquivir)** قامت عليه قرطبة وإشبيلية، وهو الشريان الحيوي للدولة الأموية ومكمن قوتها الاقتصادية. يصفه **الإدريسي** بدقة مشيراً إلى دوره في ربط قرطبة بالبحر [3].
- **نهر التاج (Tagus) ونهر دويرو :(Douro)** شكلا خطوط دفاع طبيعية (حدود مائية) بين المسلمين والممالك المسيحية في فترات المد والجزر العسكري.
- **التوثيق :**يشير **ليفي بروفنسال** إلى أن الوادي الكبير لم يكن مجرد نهر، بل كان "محور الدولة"، وتركزت حوله الكثافة السكانية العربية، بينما تركزت العناصر البربرية في المناطق الجبلية، مما خلق تقسيماً ديموغرافياً تحول لاحقاً إلى صراع سياسي [4].

4.الأقسام الجغرافية-السياسية (الثغور)

قسم المسلمون الأندلس إدارياً وعسكرياً بناءً على الجغرافيا إلى "الثغور" (المناطق الحدودية العسكرية) و"المحضرة" (الداخل المستقر).

- **الثغر الأعلى :**وعاصمته سرقسطة (مواجه للممالك المسيحية الشرقية وشمال شرق).
- **الثغر الأوسط :**وعاصمته طليطلة (ثم مدينة سالم)، وهو أخطر الثغور لمواجهته قشتالة.
- **الثغر الأدنى :**وعاصمته ماردة (ثم بطليوس)، ويواجه الغرب والشمال الغربي.
- **الإحالة :**يفصل **أحمد مختار العبادي** في هذا التقسيم، موضحاً كيف تمتعت هذه الثغور باستقلال ذاتي بحكم موقعها الجغرافي وضرورات الدفاع، مما جعل حكامها نواة لملوك الطوائف لاحقاً [5].

قائمة المصادر والمراجع (الحواشي السفلية)

1. **أحمد بن محمد المقري التلمساني**، *نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب*، تحقيق إحسان عباس (بيروت: دار صادر، 1968)، المجلد 1، ص 128-129.
2. **حسين مؤنس**، *فجر الأندلس: دراسة في تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي إلى قيام الدولة الأموية*)القاهرة: الشركة العربية للطباعة والنشر، 1959)، ص 22-25.
3. **أبو عبد الله محمد الإدريسي**، *نزهة المشتاق في اختراق الآفاق*،)بيروت: عالم الكتب، 1989)، المجلد 2، ص 538.
4. **إيفارست ليفي بروفنسال**، *تاريخ إسبانيا الإسلامية*، ترجمة علي مقلد (بيروت: دار مكتبة الحياة، د.ت)، المجلد 1، ص 45-48.
5. **أحمد مختار العبادي**، *في تاريخ المغرب والأندلس*)الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، 1998)، ص 115-117.

المحور الثاني: الإطار التاريخي (مملكة القوط الغربيين قبيل 711م)

يتسم الوضع في شبه الجزيرة الإيبيرية قبل سنة 92هـ/711م بحالة من "التحلل المؤسسي". ويمكن تفكيك هذا الوضع من خلال ثلاثة أبعاد رئيسية: الأزمة الدستورية (السياسية)، الاحتقان الاجتماعي، والاضطهاد الديني.

1. الأزمة السياسية: "الملكية الانتخابية" وصراع العروش

لم تكن الملكية عند القوط وراثية مستقرة، بل كانت **انتخابية**، مما جعل العرش حلبة صراع دائم بين النبلاء.

- **طبيعة الصراع:** عند وفاة الملك **غيطشة (Witiza)** (حوالي 710م)، حاول توريث العرش لابنه "أخيلا" (Achila)، لكن مجلس النبلاء والأساقفة في طليطلة رفض ذلك ونصب **لذريق (Roderic)** -قائد الحرس- ملكاً.
- **الانقسام الجغرافي:** سيطر لذريق على الجنوب والوسط (العاصمة طليطلة)، بينما فر أبناء غيطشة إلى الشمال الشرق، وشكلوا جبهة معارضة، وتحالفوا لاحقاً مع حاكم سبتة (يوليان) والمسلمين لاستعادة ملك أبيهم.
- **الإحالة المرجعية:** يفصل **ابن القوطية** (وهو سليل الأسرة الغيطشية) في هذا النزاع، مؤكداً أن أبناء غيطشة ساهموا في إضعاف جيش لذريق أثناء معركة وادي لكة بالانسحاب أو التخاذل، ظناً منهم أن العرب سيقصون لذريق ثم يرحلون.

المصدر: ابن القوطية، أبو بكر محمد بن عمر، *تاريخ افتتاح الأندلس*، تحقيق إبراهيم الأبياري (بيروت: دار الكتاب اللبناني، 1989)، ص 30-32.

2. البنية الاجتماعية الطبقية (مجتمع الكراهية)

كان المجتمع القوطي هرمياً بشكل صارم، مما أفقد الدولة الولاء الشعبي (Social Cohesion).

- **طبقة النبلاء ورجال الدين:** يملكون الأرض والسلطة، ومعفيون من الضرائب.

- **طبقة الأحرار الصغار:** تآكلت هذه الطبقة وتحولت تدريجياً إلى أقنان بسبب الديون والضرائب الثقيلة.
- **طبقة الأرقاء وعبيد الأرض (Serfs):** وهم الأغلبية الساحقة، كانوا ملتصقين بالأرض يباعون معها. حالتهم المزرية جعلتهم ينظرون لأي غازٍ خارجي كمنقذ محتمل وليس كعدو.
- **الإحالة المرجعية:** يشير المؤرخ **محمد عبد الله عنان** إلى أن هذا "الشقاء الاجتماعي" هو الذي يفسر سرعة سقوط المدن الأندلسية، حيث لم يجد الفاتحون أي مقاومة شعبية تذكر، بل وجدوا تعاوناً.

المصدر: محمد عبد الله عنان، *دولة الإسلام في الأندلس: من الفتح إلى بداية عهد الناصر* (القاهرة: مكتبة الخانجي، 1997)، المجلد 1، ص 33-35.

3. الوضع الديني: اضطهاد اليهود (الطابور الخامس)

هذه الجزئية جوهرية لفهم التسهيلات اللوجستية التي قُدمت للمسلمين. فرضت المجامع الكنسية في طليطلة (خاصة المجمع الـ 17) قوانين قاسية ضد اليهود: التنصير الإجباري، مصادرة الأموال، واسترقاق من يرفض التنصير.

- **النتيجة السياسية:** تحول اليهود إلى عنصر ناقم يتربص بالدولة الدوائر. وتشير المصادر إلى اتفاقات ضمنية تمت بين الفاتحين والجماعات اليهودية في مدن مثل إشبيلية وغرناطة لحفظ الأمن بعد دخول الجيش الإسلامي.
- **الإحالة المرجعية:** يؤكد **حسين مؤنس** استناداً إلى الوثائق اللاتينية والعربية أن اليهود "فتحوا أبواب المدن" ورحبوا بالمسلمين، واعتبروا الفتح "تحريراً" لهم من نير القوط.

المرجع: حسين مؤنس، *فجر الأندلس* (القاهرة: الشركة العربية للطباعة والنشر، 1959)، ص 65-68.

4. الحالة العسكرية (نظرية الجدران المهدومة)

إضافة إلى ضعف الولاء، كانت هناك مشكلة استراتيجية.

- **سياسة غيطشة:** يذكر المؤرخون أن الملك السابق غيطشة قام بهدم أسوار العديد من المدن والقلاع في الداخل لقطع الطريق أمام الثورات الداخلية، مما جعل البلاد مكشوفة عسكرياً أمام الزحف الخارجي السريع.
- **الإحالة المرجعية:** يورد **المقري** نقلاً عن الرازي وابن حيان وصفاً لقلة الاستعدادات العسكرية وهشاشة التحصينات الداخلية باستثناء العاصمة وبعض الثغور.

المرجع: المقري التلمساني، *نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب*، تحقيق إحسان عباس (بيروت: دار صادر، 1968)، المجلد 1، ص 245.

خاتمة:

إن الفتح الإسلامي للأندلس لم يكن مجرد صدفة عسكرية، بل كان لحظة تاريخية التقت فيها **القوة الصاعدة** للدولة الأموية مع **الفراغ الاستراتيجي والسياسي** لمملكة القوط المتهالكة. فالجغرافيا سهلت العزلة عن أوروبا، والسياسة مزقت الجبهة الداخلية، فكان السقوط مدوياً وسريعاً.